### إستراتيجيات التميز الأكاديمي في العالم

# المشروع الروسي ٥ – ١٠٠ هل يحقق الأهداف المرجوة منه؟

**| أ. د. وائل معلا**

نشر مؤخراً في ملحق التعليم العالي لجريدة التايمز الانكليزية مقال مهم بعنوان: «هل يحقق المشروع الروسي ٥ – ١٠٠ الأهداف المرجوة منه؟» Project 100 – 5 Is Russia's Working ؟ استعرض فيه كاتبه سايمون بيكر Simon Baker مراحل تحول نظام التعليم العالي في روسيا في ضوء المشروع ٥ – ١٠٠ للتميز الأكاديمي الذي يهدف إلى تحسين مكانة التعليم العالي على روسيا والارتقاء بمستوى أداء خمس جامعات على الأقل من الجامعات المشاركة في المشروع إلى مرتبة أفضل مئة جامعة في العالم وفقاً لأهم ثلاثة تصنيفات عالمية وهي تصنيف تايمز للتعليم العالي Times Higher Education World University Rankings الذي تصدره مجلة التايمز الإنجليزية، وتصنيف كيو إس QS world Ranking الذي تصدره مؤسسة Quacquarelli Symonds الإنكليزية، والتصنيف الأكاديمي للجامعات العالمية ARWU المعروف أيضاً بتصنيف شانغهاي جياو تونغ Shanghai Jiao Tong.

> وزارة التعليم العالي في سورية أدركت أخيراً أهمية أنظمة التصنيف للجامعات العالمية وتأثيرها

كان من اللافت في منظومة التعليم العالي الروسي في السنوات الست الماضية الزيادة الكبيرة في إنتاج البحوث العلمية؛ إذ ازداد عدد الناتج العلمي الروسي المفهرس في قاعدة بيانات Scopus بأكثر من الضعف، وهذا ما رفع تمثيل الجامعات الروسية في تصنيف تايمز لمؤسسات التعليم العالي العالمية من مجرد ١٣ مؤسسة تعليمية (من أصل ٨٠٠ مؤسسة دخلت التصنيف في عام ٢٠١٦) إلى ٣٥ مؤسسة (من أصل ١، ٢٥٨ مؤسسة مدرجة وفق أحدث تصنيفات تايمز لعام ٢٠١٩). والسبب الرئيسي في ذلك يعود إلى إطلاق «مشروع ٥ – ١٠٠ للتميز الأكاديمي» في عام ٢٠١٣، حيث اختيرت ١٥ جامعة كمرحلة أولى، ثم ست جامعات (كمرحلة ثانية) في عام ٢٠١٥ – من خلال منافسة مفتوحة للحصول على ما يصل إلى مليار روبل (أي ما يعادل ١١،٦ مليون دولار) سنويا، وذلك في محاولة لتحفيز خمس جامعات على رفع تصنيفها ضمن أنظمة تصنيف الجامعات العالمية لتدرج ضمن أفضل مئة جامعة في العالم بحلول عام ٢٠٢٠. ومن هنا أتت التسمية «مشروع ٥–١٠٠». أما اختيار الجامعات فقد جرى بناءً على مقترحات تقدمت بها كل جامعة عن «خريطة الطريق» التي ستتبعها في سعيها إلى تحسين مكانتها الدولية، وعلى تقييم أدائها للوصول إلى الهدف المنشود وفق خريطة الطريق التي وضعتها، وإلى مؤشرات أداء للمشروع ككل. والجدير بالذكر أن الجامعات المشاركة لا تتلقى كلها التمويل نفسه، بل إن الجامعات التي كان تقييم أدائها جيداً كوفئت بأموال إضافية.

ما زال هدف المشروع حتى الآن بعيداً عن التحقيق، فالجامعة الروسية الوحيدة الموجودة ضمن أفضل مئتي جامعة في العالم وفق تصنيف تايمز لعام ٢٠١٩ هي جامعة لومونوسوف موسكو الحكومية Lomonosov Moscow State University، وهي الجامعة الرائدة في روسيا، وقد تمكنت من الاحتفاظ بمكانتها البارزة ضمن أفضل مئتي جامعة في العالم، ولكنها تراجعت خمسة مراكز عن ترتيب العام الماضي لتحقق المركز ١٩٩، كما أنها ليست ضمن الجامعات المشاركة في المشروع ٥ – ١٠٠. أما أعلى مرتبة حققتها مؤسسة مشاركة في هذا المشروع فتدخل ضمن النطاق ٢٥١ – ٣٠٠ وفق تصنيف تايمز ٢٠١٩، وهي المرتبة التي حققها معهد موسكو للفيزياء والتكنولوجيا Moscow Institute of Physics and Technology. ومع ذلك، فإن البيانات تشير إلى أن الجامعات المشاركة في «المشروع ٥ – ١٠٠» قد تمكنت من تحسين أدائها بشكل ملحوظ. فعلى سبيل المثال، من عام ٢٠١٢ إلى عام ٢٠١٧، تمكنت ثماني عشرة جامعة مشاركة في المشروع، وهي التي دخلت في تصنيف تايمز لعام ٢٠١٩، من زيادة إنتاجها البحثي المفهرس في سكوبس Scopus أربعة أضعاف (من نحو ٧٠٠٠ إلى ٢٨،٠٠٠ مقال بحثي)، وهذا يتجاوز الإنتاج العلمي لجنوب إفريقية بأكمله (وهي إحدى دول البريكس). وهذا نمو مدهش من دون شك، إذ تجاوزت إنتاجية البحث العلمي لكل عضو هيئة أكاديمية في الجامعات المشاركة في المشروع إنتاجية أقرانه في باقي الجامعات الروسية الأخرى ذات التصنيف العالي. وكذلك تجاوزت تلك العائدة للعديد من الجامعات العالمية كالجامعات البرازيلية على سبيل المثال، وتساوت مع الجامعات الهندية.

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن هو هل يعد المشروع ٥ – ١٠٠ مثالا جيداً يحتذى به كمبادرة تميز حكومية فرضت من أعلى الهرم؟ وهل يمكن أن يعدّ مشروعا ناجحاً؟ وهل يقوم برفع المعايير الأكاديمية لجميع المؤسسات الروسية أم إنه ينشئ نظاماً نخبوياً من مستويين؟ وما مستقبل المشروع الآن؟ وهل سيحقق الهدف المرجو منه وخاصة أن الموعد النهائي للمشروع (عام ٢٠٢٠) أصبح قاب قوسين أو أدنى؟

يعتقد اندريه فولكوف Andrei Volkov نائب رئيس المجلس الحاكم للمشروع (وهو مجلس مكون من من مسؤولين حكوميين وأكاديميين ورجال أعمال وخبراء آخرين من روسيا ومن دول حول العالم يقوم بالإشراف على المشروع ويقدم المشورة والنصح لوزارة العلوم والتعليم العالي الروسية عن الأوجه التي يجب أن تنفق فيها الأموال)، يعتقد وهو عالم في الفيزياء النووية ونائب رئيس جامعة سابق ومعاصر لنظام التعليم العالي الروسي قبل وبعد انهيار الاتحاد السوفييتي، يعتقد اعتقادا راسخا أن المشروع ٥ – ١٠٠ هو «الإصلاح الأكثر تأثيرا» في السنوات العشرين الماضية في نظام التعليم العالي الروسي. ويرى أن المفتاح الرئيسي لنجاح المشروع هو أنه يضع حداً نهائياً لفصل التعليم العالي عن البحث العلمي، ويضع الجامعات – التي كانت تقليديا تركز على التدريس – في موقع بحثي واحد مع معاهد البحوث المركزية، وفي المقام الأول الأكاديمية الروسية للعلوم Russian Academy of Sciences. في رأيه « لم يكن في روسيا جامعات على الإطلاق: مجرد مؤسسات تدريب، وإن كان بعضها عالي الجودة للغاية». تحوّل الجامعات من مؤسسات تدريب إلى مؤسسات قائمة على الأبحاث يعد «ثورة ثقافية في بلدي»، يقول فولكوف.

من الناحية العملية، فإن هذا التحول يعني أن وحدات أبحاث «الأكاديمية الروسية للعلوم» أصبحت أكثر تكاملاً مع الجامعات، من خلال عمليات الدمج، أوزيادة التعاون، أو إيكال مهام مشتركة للباحثين.

إيغور تشيريكوف Igor Chirikov، وهو باحث كبير في مركز دراسات التعليم العالي في جامعة كاليفورنيا – بيركلي شغل في السابق منصب نائب رئيس المدرسة العليا للاقتصاد في موسكو، وهي واحدة من أعلى المؤسسات المشاركة في المشروع ٥ – ١٠٠ مرتبة، قام بدوره بدراسة تفصيلية عن الكيفية التي غير فيها المشروع ٥ – ١٠٠ الجامعات الروسية، وهو يوافق على أن هذا التحول كان مهماً، فيقول «كان لدينا قطاع من الجامعات التي لم يكن لديها مهمة تاريخية للقيام بالأبحاث العلمية، والاستثمار في المشروع ٥ – ١٠٠ جعل من هذه الجامعات، جزئيا على الأقل، أكثر توجها نحو البحث العلمي –research orientated. ويوافق إيغور على أن الجامعات الروسية تعمل الآن بشكل أوثق من ذي قبل مع الأكاديمية الروسية للعلوم، مشيراً إلى أن ظاهرة مماثلة تلاحظ في كل من ألمانيا والصين، حيث أصبحت معاهد ماكس بلانك Max Planck Institutes ومعاهد الأكاديمية الصينية للعلوم أكثر تكاملا مع مؤسسات التعليم العالي.

ومن فضائل المشروع أيضاً بحسب رأي تشيريكوف أنه أدى إلى زيادة «مرئية» العلوم والبحوث التي كانت تنشر في السابق باللغة الروسية، إذ أصبحت تنشر باللغة الإنجليزية مما يتيح للباحثين في شتى أرجاء العالم الاطلاع عليها.

ولأن الهدف الصريح للمشروع هو تحسين المنزلة العالمية للجامعات الروسية، كان لا بد من زيادة عدد أعضاء الهيئة الأكاديمية الدوليين، وكذلك أعداد الطلاب الدوليين. وتشير البيانات إلى أن تقدما ملحوظا قد تحقق في هذا المجال أيضاً حيث حققت المؤسسات الروسية ذات التصنيف العالمي المشاركة في المشروع ٥ – ١٠٠ تحسنا تجاوز بكثير ما حققته باقي الجامعات الروسية.

ورغم كل هذا التقدم الذي تحقق في إطار «مشروع ٥–١٠٠»، إلا أن هناك محاذير مهمة يشير إليها فيليب ألتباخ Philip Altbach المدير المؤسس لمركز التعليم العالي الدولي في كلية بوسطن وعضو المجلس الاستشاري لمشروع ٥ – ١٠٠. فبالنسبة للطلاب الدوليين، يقول التباخ: إن أغلبهم من جمهوريات الاتحاد السوفييتي السابق، مع زيادة متواضعة في الطلاب الأجانب الآخرين. وتشعر الجامعات المشاركة بالمشروع بشيء من القلق إزاء ذلك وتسعى لتحسين هذا الجانب. كما أن هناك عوائق أمام توظيف المزيد من الأساتذة والباحثين الدوليين أهمها حاجز اللغة، وانخفاض قيمة الروبل الروسي، وهو الأمر الذي انعكس سلباً على قيمة الرواتب. علماً أن التوظيف في الرياضيات والهندسة أمر مكلف جداً لأن الجامعات تريد استقطاب «نخبة النخبة» لاستكمال المستوى الرفيع من الأكاديميين الروس العاملين لديها، على حين أن عائق اللغة هو التحدي الأساسي في اختصاصات العلوم الاجتماعية. ومع ذلك، فقد تمكنت أفضل المؤسسات التعليمية الروسية خلال خمس سنوات فقط من جذب طلاب دكتوراه متميزين وتوظيف أكاديميين واعدين عالميا، كجلمعة تيومين غرب سيبيريا!

ومن جهة أخرى، هناك سعي حثيث ضمن إطار المشروع إلى تطوير التعاون الدولي البحثي. وقد حققت العديد من الجامعات المشاركة بالمشروع تقدماً في هذا المجال، مثل جامعة ITMO في سان بطرسبرج التي كانت نصف البحوث التي أنتجتها في عام ٢٠١٧ والمفهرسة وفق Scopus نتيجة تعاون بحثي دولي، وقد ارتفعت هذه النسبة من نحو الثلث قبل خمس سنوات. وتقول الدكتورة داريا كوزلوفا Daria Kozlova، النائب الأول لرئيس الجامعة، أن لهذا الأمر أسباباً عدة منها تغيير طرق تنظيم فرق البحث، وإطلاق مسابقة مفتوحة لمختبرات أبحاث دولية لها رئيسان، روسي وأجنبي. ومع ذلك فإن «عولمة البحث العلمي» تلاقي صعوبات، لعل أحد أسبابها الرئيسية المناخ السياسي الذي أثر سلباً على التعاون الدولي البحثي.

أما عن الإصلاحات الأخرى التي يمكن أن تساعد الجامعات الروسية على تحقيق المزيد من التحسن في الأداء، فيطالب كل المعنيين بالمشروع (الجامعات، وقادة المشروع والأكاديميين الذين درسوا المشروع) الحكومة بمنح الجامعات المزيد من الاستقلالية.

## تقييم «المشروع ٥-١٠٠» وتعديله

بحسب بيانات التصنيف العالمي للجامعات، تحقق الجامعات الروسية المشاركة في المشروع ٥ – ١٠٠ تقدماً بطيئاً على صعيد جودة البحوث العلمية، على الرغم من أن حصتها من المقالات الأكثر استشهادا تزداد باستمرار). كذلك فإن سمعتها الدولية ما زالت دون المطلوب. إن سد هاتين الفجوتين اللتين تمثلان ثلثي الدرجات في أنظمة التصنيف، سيتيح للمشروع ٥ – ١٠٠ في نهاية المطاف تحقيق الهدف الذي وجد من أجله.

نتائج التقييم الفعلي للواقع والممارسة فرضت تعديل الهدف الأساسي للمشروع وهو الحصول على خمس جامعات روسية ضمن أفضل مئة جامعة عالمية. هذا التعديل بدا واضحاً على الموقع الإلكتروني للمشروع على شبكة الانترنت حيث عدّل الهدف ليصبح: «تعظيم الوضع التنافسي لمجموعة من الجامعات الروسية الرائدة في سوق البحث العلمي والتعليم العالي العالمي». وأصبح الهدف الحصول على النجاحات في مجالات فردية، نظراً للطبيعة المتخصصة للكثير من الجامعات الروسية. فمثلاً جامعة ITMO المتخصصة في تكنولوجيا المعلومات والهندسة، صنفت الآن وبقوة ضمن أفضل مئة جامعة في تصنيف تايمز لأفضل الجامعات العالمية في موضوع علوم الكمبيوتر. ويعزى هذا النجاح إلى الأهداف الطموحة للمشروع ٥ – ١٠٠، وإلى شفافية عملية اختيار الجامعات المشاركة التي كانت علنية وأشرف عليها مجلس دولي وخبراء أجانب. جامعة ITMO جامعة صغيرة وديناميكية أتاح لها المشروع إجراء تحول جذري في حقل البحوث العلمية وانتقاء وتأهيل الكادر الأكاديمي، وتطوير نظامها الإداري.

لم يكن المشروع ٥ – ١٠٠ أبداً «مجرد لعبة تصنيف»، فغايته الأساسية كانت تحويل نظام التعليم العالي الروسي بالكامل. وعلى الرغم من أن الوصول إلى الهدف المرجو ما زال بعيداً، إلا أن أحداً لا يساوره شك في أن تقدماً ملموساً يحرز في هذا المجال. ويرى الخبراء أن على الحكومة إلا تكتفي في العام القادم بتجديد المشروع، بل عليها التوسع به ليشمل جامعات أخرى، ذلك أن الهدف الأسمى هو الوصول إلى نظام تعليمي ممتاز، وجعل الحضور إلى روسيا أكثر جاذبية للطلاب الأجانب ولخيرة أعضاء هيئة التدريس العالميين. وإذا ما تحقق ذلك «فستصبح بعض الجامعات الروسية عاجلاً أم آجلاً ضمن مجموعة النخبة».

## هل يعد المشروع مثالا يحتذى به للواقع السوري

يلاحظ مما سبق أن المشروع ٥ – ١٠٠ الذي أطلقته وزارة العلوم والتعليم العالي الروسية عام ٢٠١٣، قد أحدث نقلة نوعية كبيرة في الجامعات الروسية المشاركة في المشروع، وإن كان من غير المرجح أن يحقق الهدف الرئيسي منه وهو رفع خمس جامعات روسية على الأقل من بين الجامعات المشاركة إلى أفضل مئة جامعة في العالم وفقاً لأهم أنظمة تصنيف الجامعات العالمية. والسؤال الذي يطرح نفسه اليوم! هل يعد المشروع مثالاً يمكن الاستفادة منه – من دون استنساخه– في الواقع السوري وخاصة في ضوء التصنيفات العالمية التي صدرت مؤخراً كتصنيف تايمز لعام ٢٠١٩ والذي غابت عنه جميع الجامعات السورية بما فيها جامعة دمشق العريقة بتاريخها، على حين تضمنت جداول التصنيف تسع عشرة جامعة مصرية والعديد من الجامعات العربية الأخرى؟

يبدو أن وزارة التعليم العالي في سورية قد أدركت أخيراً أهمية أنظمة التصنيف للجامعات العالمية وتأثيرها في السمعة العلمية لجامعاتنا وعلى موقعها إقليمياً وعالمياً، فعقدت سلسلة من الندوات التعريفية في معظم الجامعات الحكومية للتعريف بهذه الأنظمة، لكن معظم النقاش تمحور حول إجراءات شكلية لا تصب جوهرياً في تحسين الواقع الحالي للجامعات، ورفع إنتاجيتها من البحوث العلمية، وتطوير شراكاتها العلمية الدولية، وكلها مؤشرات مهمة في عملية تصنيف؛ وإنما تمحور النقاش حول ضرورة أن تطور الجامعات مواقعها الإلكترونية على شبكة الإنترنت، وضرورة أن يستخدم أعضاء هيئة التدريس وطلاب الدكتوراه بريدهم الإلكتروني المخصص من الجامعة عوضاً عن استخدام بريدهم الخاص، وغيرها من الإجراءات الشكلية، في محاولة منها لتحسين تصنيف الجامعات السورية وفق نظام ويبومتريكس Webometrics، وهو تصنيف نصف سنوي يصدر عن المجلس العالي للبحث العلمي في إسبانيا ويعتمد على قياس أداء الجامعات من خلال مواقعها الإلكترونية وفق مجموعة من المعايير هي: حجم الموقع، والملفات الخاصة بالوثائق والمعلومات النصية التي تنتمي لموقع الجامعة، والأبحاث المحكّمة والتقارير والرسائل المنشورة إلكترونياً تحت نطاق موقع الجامعة، وقد أحدثت نتائج هذا التصنيف التي صدرت مؤخراً صدمة كبيرة في الأوساط الجامعية السورية، حيث نالت الجامعات السورية بما فيها جامعة دمشق مراتب متدنية جداً، متراجعة تراجعاً خطراً بأكثر من أربعة آلاف مرتبة لتصبح في المرتبة ١٠٩٠٢ عالميا، و٣٢٥عربياً!

## المشروع ٥ – ٥٠٠ للتميز الأكاديمي في سورية

اليوم نحن بحاجة إلى مشروع وطني شبيه بالمشروع الروسي ٥ – ١٠٠، يعالج الأسباب الرئيسة لتدني تصنيف الجامعات السورية، ويخلق بيئة تنافسية بينها ما يدفعها للسعي نحو التميز في التعليم والبحث العلمي، وبناء الشراكات الدولية مع جامعات الدول الصديقة. وكنت قد اقترحت في مقال سابق إطلاق المشروع الوطني ٥ – ٥٠٠، الذي ينص على أنه بحلول عام ٢٠٢٥ مثلاً، يجب ألا يقل عدد الجامعات السورية التي تصنف ضمن أفضل ٥٠٠ جامعة في العالم عن خمس جامعات. ويمكن الاستفادة من التجربة الروسية في هذه المجال، واتباع النهج الذي اتبع في روسيا في عملية اختيار الجامعات المشاركة في هذا المشروع. كما ينبغي أن تضع كل جامعة ترغب في المشاركة «خريطة طريق» خاصة بها توضح خطة العمل التي ستتبعها لتحقيق الهدف المرجو من المشروع. ولا بد من تقييم دوري نزيه وموضوعي لمدى تقدم كل جامعة في تحقيق هذا الهدف استنادا إلى خريطة الطريق التي وضعتها، وإلى مؤشرات أداء توضع من الجهة المشرفة على المشروع. وينبغي أن يشرف على إدارة هذا المشروع مجلس مكون من مسؤولين في التعليم العالي، وأكاديميين ورجال أعمال وخبراء آخرين في التعليم العالي من سورية ومن دول مختلفة من العالم. وأخيراً، لا بد من تخصيص ميزانية كبيرة لهذا المشروع لدعم الجامعات المشاركة فيه، وتحفيز القطاع الخاص الوطني على المشاركة في تمويله عن طريق منح الممولين إعفاءات ضريبية وتسهيلات أخرى محفزة.

وهناك إجراءات أخرى لا بد أن تواكب تنفيذ هذا المشروع كوضع خطة لبناء قدرات أعضاء الهيئة التعليمية والبحثية في كتابة المقالات العلمية، وإيجاد الحوافز اللازمة لتشجيعهم على النشر في المجلات العالمية المرموقة وباللغة الإنكليزية. كذلك لا بد من تفعيل أداء مديريات العلاقات الدولية في الجامعات بغية بناء شراكات علمية مفيدة مع جامعات صديقة، وإقامة مشاريع بحثية مشتركة ينتج عنها نشر بحوث علمية مشتركة ومقالات علمية مشتركة. ولجعل جامعاتنا أكثر جاذبية للطلاب الدوليين ينبغي إيجاد بعض البرامج باللغة الإنكليزية على سبيل المثال، سواء أكان ذلك على مستوى الدراسات الجامعية الأولى أم الدراسات العليا. وقد يتطلب ذلك تعديلاً للقوانين والأنظمة النافذة، ولكن هذا التعديل سيكون ضرورياً إذا ما أريد لهذا المشروع الوطني النجاح.

وأخيراً يجب أن يتابع عن كثب وبشكل دوري وموضوعي وشفاف مدى تقدم كل جامعة في تنفيذ «خريطة الطريق» الخاصة بها ومدى التقدم الذي أحرزته في السعي نحو أهداف المشروع، ولا بد أن يرتبط الدعم المالي الذي تتلقاه كل جامعة مشاركة بالتقدم الذي أحرزته.

وعلى الرغم من أن حق المشاركة أو عدم المشاركة بهذا المشروع الوطني سيكون متاحاً للجميع من جامعات حكومية وخاصة ومعاهد عليا وغيرها، إلا أن التقاعس عن المشاركة ليس خياراً متاحاً لبعض الجامعات، وأقصد هنا بالتحديد جامعة دمشق بالذات. فالمشاركة بمثل هذا المشروع في حال إطلاقه سيكون فرصة ذهبية لتطوير الجامعة واستعادة ألقها ومنزلتها الإقليمية والدولية التي فقدتها. وقد يجادل البعض أن رفع خمس جامعات على الأقل من بين المشاركين في المشروع إلى أفضل خمسمئة جامعة في العالم بحلول عام ٢٠٢٥ أمر صعب للغاية في ضوء المنافسة العالمية الشديدة، وخاصة أن أياً من التسع عشرة جامعة المصرية التي دخلت تصنيف تايمز لعام ٢٠١٩ لم تستطع تحقيق ذلك، بمافي ذلك جامعة القاهرة. وأنا أقول لندع تحديد ذلك للخبراء، فقد يكون المشروع ٥ – ١٠٠٠ هو الأنسب لواقعنا الحالي. لكن مهما كانت الفترة الزمنية، ومهما كانت درجة التصنيف، فلا بد أن نبدأ بأسرع وقت مثلما فعلت الجامعات الروسية، فرحلة التطوير طويلة لكنها تبدأ بخطوة، ولابد من حشد كل الطاقات اللازمة للوصول إلى الغاية المنشودة، فطلابنا وجامعاتنا وسمعتنا العلمية.... وسورية... يستحقون ذلك.

# محمد البزم.. شاعر الشام المظلوم

**| أنس تللو**

عظيمٌ في شعره وعظيمٌ في شخصه؛ عظيمٌ في شعره لأنه شاعر متين السبك رائقُ المعاني بهي الصور عميق المشاعر... وعظيم في شخصه لأن طموحه الفردي فاق كل تصور وسبق كل خيال... فإن نر شاعراً فحلاً فهذا أمر معتاد وإن نر أستاذاً للعربية فريداً ونابغا فهذا أمر متوافر في كل زمان... أما حين نعرف أن هذا الشاعر الكبير وهذا الأستاذ القدير قد كان وهو في العشرين من العمر أمياً لا يعرف إلا قراءة بعض آيات من القرآن الكريم لماماً... وإن نعرف أنه قد صنع بنفسه لنفسه ما لا تتمكن أحياناً أسمى الجامعات من تحقيقه مع بعض الطلاب فهذا أمر أعظم من العظمة ذاتها.

إنه الشاعر الكبير محمد البزم، (١٨٨٧–١٩٥٥)... ذاك الرجل الأمي الذي آلى على نفسه ألا يدع تلك الموهبة الشعرية الفذة الكامنة في صدره تذهب هباءً ؛ ولم يأته الشعر هينا سهلا مفروشا على البساط... ولم يهن عليه أن يتجاهل ذلك الميل العميق الهائل إلى اللغة العربية وأسرارها... فما إن وصل إلى العشرين من العمر حتى انكب على المكتبة الظاهرية ينهل من فرائد كتبها ويتهافت على دواوين شعرائها... وما زال يقرأ ويقرأ حتى تفجرت قريحته شعرا ونثرا في ينبوع غزير يضاهي أعظم منابع اللغة العربية الثرة ؛ ووجد نفسه يجالس فقهاء العربية وينافس أعرق أساتذتها، بل لقد غدا أستاذاً متميزاً جداً في علوم النحو والصرف، وانساقت للسانه تقطيرات البلاغة وخضعت لبيانه تقطيعات العروض، وراح يضاهي أولائك القدماء الذين تتبعوا هذا العلم وأنشؤوا فيه مدارس في القرون الخالية حتى كاد ينشئ مدرسة خاصة به.

هو أحد الشعراء الأربعة الذين يُلقَّبون بـ(شاعر الشام) شفيق جبري وخير الدين الزركلي وخليل مردم بك ومحمد البزم... لكنه يتميز عن هؤلاء جميعاً بمتانة السبك وجزالة اللفظ وبراعة انتقاء المعاني العميقة من معجم لغوي معبر جدا... حتى أطلق عليه بعض النقاد لقب (شاعر جاهلي يعيش في القرن العشرين).. ومن الأمثلة الواضحة على ذلك اللقب قصيدة له يناجي فيها دمشق كتبها في مئة وستين بيتاً، منها هذه الأبيات:

رفعتْ على حرمِ الخلودِ بنودا
ومضتْ تحلّقُ في الإباءِ صُعودا
بنت العصور الحاليات نحورها
بالزّهر تسطعُ ما عرفنَ جمودا
ريحانةُ الدنيا وظلُّ نعيمها
من قبلِ مولدِ يعربٍ وثمودا

اعتلى الشاعر محمد البزم منابر التعليم مدة خمس وعشرين سنة، كان جلّها في مدرسة التجهيز، وقد غدت التجهيز بفضله وبفضل باقي العلماء الذين كان يتحاور معهم من أمثال عبد القادر المبارك وسليم الجندي وعز الدين التنوخي، كأنها كلية للآداب، ومازال إلى اليوم بعض من طلبته يترنمون بأساليبه البديعة في التدريس العظيم والفن الموصل المبدع ؛ ويروون بعضا من كلماته العريقة التي تشهد على عشقه الشديد للغة العربية... قال مرة لأحد الطلاب المشاغبين الذي كان يدبّ بقدمه على الأرض فيصدر صوتاً مزعجاً:

أنت يا جارَ النافذة، أما لعقلك من سلطان على قدميك.

ومن أمثلته البهية في أسلوب التدريس أنه كان يصنع تعاريف للقواعد النحوية تقرّب الفكرة من النفس وتسهّل حفظها فقد كان يعرّف ( الحال) بأنه: صفةٌ خالفتِ الموصوف فعوقبت بالنصب.

لقد كلف محمد البزم باللغة العربية كلفا شديدا جداً جعلها تدخل في صميم حياته، فكان لا يتحدث إلا بها في كل مكان وحتى في بيته، ما جعل أعداءه ممن لم يعوا مقصده يسمونه (المتفاصح)، لكن المقربين منه كانوا يفهمونه تماما.

ومما يُذكر أنه دخل مرة المطعم مع نفر من أصدقائه ولما قدِم النادل وسأل البزم عن مراده أجابه:

ائتني بقصعة من الحمص، وإياكَ إياكَ أن تذَرَ عليه شيئاً من التوابل والأفاوية، وجنِّبني ما استطعت الحامضَ والزيت.

نظر النادل إلى أصدقاء الشاعر فوجدهم جادين لم يبتسموا فعرف أنه أمام رجل غريب عن عصره ومجتمعه.

كان محمد البزم عاشقا لوطنه أيما عشق فدخلت القومية العربية في صلب حياته ؛ لذلك فقد حفل ديوانه بالأشعار الوطنية الصادقة، ومن ذلك يقول:

أشرقُ انتبه واربأ بنفسك وانتهج
طريقاً به تلغي الأماني دوانيا
أشرق انتبه، وانبذ خمولاً عشقته
وصح في دعاة الجهل أن لا تلاقيا
أشرقُ انتبه، لا ترَتد العجز لاهياً
فليس ينالُ السؤالَ من كان لاهيا
ينالُ العلا من كان بالعلم هائماً
وللجهل نباذاً، وللضيمِ آبيا

ألّف البزم عدة كتب فضلاً عن ديوانِي شعر، منها: (مقدمة في صنعة الشعر ونقده)، (كتاب اللحن)، وقد تتبع فيه اللحن في كلام العرب ودرس أسبابه وأنواعه، كتاب (النحو الواقع) ؛ وهو قواعد للغة العربية، كتاب (الجحيم) وفيه يؤكد سهولة العربية في فنونها عامة ويقيم الحجة الدامغة على أن اشتقاقات اللغة العربية الغزيرة تهبها المقدرة الدائمة على التكيف ومجاراة كل العصور العلمية المتطورة، كتاب (الجواب المسكت) وهو مجموعة كبيرة لكل جواب مسكت قالته العرب... كتاب (من وحي المرأة).

وحين جاوز البزم الستين تعب جسمه وتزايدت أمراضه وأحيل إلى التقاعد، وضاق صدره بالعيش، فتكرم عليه أحد طلابه الضباط وهو الطبيب الشاعر عزة الطباع فجعل له إقامة بالمشفى العسكري الذي بقي فيه ثلاث سنوات ؛ ثم وفي المشفى كُفَّ بصره، وأصيب بالشلل، وما زال يفقد صحته رويدا رويدا إلى أن فقد الحياة، فأسلم الروح بارئها يوم الإثنين في ١٩٥٥/٩/١٢.

وبعد: أليس حرياً بنا اليوم أن نكتب سيرة البزم ونقرأها لنتعرف إلى رجل بلغ العشرين وهو أمي ثم انطلق فوصل إلى مصاف الأساتذة العظماء والشعراء العباقرة؟

ألا يستحق محمد البزم أن تقام ندوات حول شعره ونتاجه من الأدباء والنقاد؟

ألا يستحق أن يُعدّ عنه فيلم تلفزيوني وثائقي، ولاسيما أن بعض من عاصروه لا يزالون على قيد الحياة؟

لكنه لم يجر له أي تكريم حتى اليوم.

رحم الله أساتذتنا القدماء الذين صنعونا وكان لهم علينا الفضل الكبير.